Kırıkkale Üniversitesi Sosyal Bilimler Dergisi (KÜSBD)
Cilt 10, Sayı 2, Temmuz 2020, Sayfa 691-704
Kırıkkale University Journal of Social Sciences (KUJSS)
Volume 10, No 2, July 2020, Pages 691-704

الرتبة بين النظرية والتطبيق

Mesut CEVHER[1]

ملخص:

تتفرد قرينة الرتبة بمنزلة عالية في فهم السياق اللغوي، وتعتمد اللغة العربية عليها في أداء مهمة التواصل، ولذلك فقد شغلت الفكر اللغوي حديثا وقديما، فنالت قدرا غير قليل من الدراسة، وهي من الموضوعات الجديرة – على الرغم مما سبق– بمعاودة درسها مرة أخرى؛ للوقوف على أسباب الحفاظ عليها، وأسباب إهدارها من جهة أخرى، وكذلك يجب تصنيف هذه الأسباب التي ذكرها نحاة العرب، وهذا من أهم ما تتفرد به هذه الدراسة.

لذلك حاولنا في هذه الصحفات أن نضع الخطوط العريضة لما يمكن أن يكون دراسة قابلة بإذن الله. وقد قدمنا للدراسة بتمهيد نرى أن له أهمية في بيان قيمة الرتبة، وأتبعناه بمفهوم الرتبة في الفكر اللغوي القديم والحديث، ثم ألمحنا لطريقة دراسة الرتبة عند الفريقين، وختمنا المطاف بدراسة تطبيقية على باب المفعول به راعينا فيها أن يكون استشهادنا بآيات القرآن الكريم ؛ فهو أسمى و أجل ما كتب باللغة العربية. و لا يفوتنا أن ندعو الله لأستاذنا المرحوم– بإذن الله تعالى– أ.د.محمد فتيح فقد علمنا الكثير في وقت قليل فجزاه الله عنا خير الجزاء.

الكلمات المفتاحية: الرتبة– الترتيب– تقديم– تأخير– المفعول.

Teori ve Pratik Açısından Rütbe

Öz

Sıralama bağlamı, dilsel bağlamı anlamada oldukça önemli bir yere sahıptır. Arapça dili iletişim görevini yerine getirmekte ona bağlıdır. Bu nedenle, son zamanlarda ve daha önce dilbilimsel düşünceyi meşgul etti ve çokça araştırmalara konu oldu. Yukarıdakilere rağmen korunmasının nedenlerini ve yok sayılmasının nedenlerini ortaya çıkarmak için- tekrar incelemeyi hak eden konulardan biridir. Ayrıca, Arap gramercilerinin belirttiği nedenler de sınıflandırılmalıdır. Bu da çalışmamızın en önemli özelliklerinden biridir. Bu makalelerde ilerde detaylı bir çalışmanın ana düşüncelerini özetlemeye çalıştık. Çalışmayı, rütbenin değerini açıklamada önem taşıdığına kanaat getirdiğimiz bir önzöz ile giriş yaptık. Bunu eski ve modern dilbilim düşüncesinde rütbe kavramı ile takip ettik. Sonra iki ekolun rütbe inceleme yöntemine değindik. Ve mefül konusunda uygulamalı bir çalışma ile sonuçlandık, Burada örneklrimizin Kur'an ayetlerinden tecih ettik; Arapça yazılmış en yüce ve en Belağatlı olmasındandır.

Anahtar kelimeler: Rütbe- Sıralama- öne almak- geciktirmek- mefül.

The Contextual Rank Between Theory and Practice

Abstract

The contextual rank is highly unique in understanding the linguistic context. The Arabic language depends on it for performing the communication task. Therefore, it occupied linguistic thought, both recently and in the past. It got quite a bit of study. It is one of the issues that deserves - despite the above - to be studied again. To find out the reasons for keeping it. And the reasons for Canceling it on the other hand. Likewise, the reasons mentioned by the Arab grammarians must be classified. This is one of the most important features of this study. Therefore, in these papers we have tried to outline what could be a midwife study, God willing. We have presented the study with a preliminary, which we consider important in indicating the value of the rank. And we followed it with the concept of rank in ancient and modern linguistic thought, then we alluded to the method of studying the rank of the two groups. And we ended up with an applied study on the subject of the verb in which we observed that our martyrdom should be in the verses of the Noble Qur'ân.

Keywords: Rank, Order, Submit, Delay, Object.

[1] Dr. Öğretim Üyesi, Kırıkkkale Üniversitesi, İslami İlimler Fakültesi,Temel İslam Bilimleri Bölümü, E-posta: mgouhar@yahoo.com Orcid No: 0000-0002-6050-0029.

Makale Gönderim Tarihi: 08.05.2020
Makale Kabul Tarihi : 02.06.2020

تمهيد:

لا شك أنه لا يكفي لكي يفهم المرء التراكيب اللغوية للغة ما أن يتعرف على وحداتها المعجمية، و أن يدرك معاني هذه الوحدات ؛فالتركيب اللغوي لا يشتمل فقط على معاني هذه الوحدات المعجمية بل يشتمل أيضا على سمات نحوية غير معجمية، و هذه السمات مفيدة في الهدف الأساسي للغة ألا و هو التواصل أو الفهم والإفهام.

فالمدلول اللغوي الذي تمثله الجملة (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) لا يعتمد فقط على معاني الوحدات المعجمية المكونة لها، بل يعتمد أيضا على إدراك العلاقات النحوية بين الشكل المعجمي (يدافع) وبين الأشكال الأخرى، وهي علاقات تقوم على السمة الخاصة بهذا الشكل، تحدد سمة الاختيار أنه لا بد أن يأخذ فاعلا في صورة ما يشغل الموقع التالي له (مثلا)، و مفعولا به في صورة أخرى يشغل الموقع الثالث (مثلا)، كما أنه يمكن أن تتعلق به ظروف خاصة – كتلك المرتبطة بزمانه أو مكانه أو آلته– تشغل الموقع التالي لمفعوله (مثلا).

ومعرفة الأشكال اللغوية بالنظر إلى الرموز المكتوبة للغة ليس مهمة صعبة، ولكن الأصعب معرفة الوظيفة التي يعبر عنها الشكل اللغوي ؛ فالشكل اللغوي الواحد يمكن أن يعبر عن أكثر من وظيفة : فالاسم المرفوع يمكن أن يعبر عن الفاعل و نائبه و المبتدأ و الخبر...إلخ و الأداة ما يمكن أن تكون للشرط و الاستفهام و الموصول و المصدرية و أن تكون كافة أو زائدة .....إلخ

وإزاء هذا التعدد الوظيفي للشكل اللغوي الواحد كان لزاما على الناظر أن يبحث في النص عن القرائن المعنوية

واللفظية والحالية ليرى عن أي الوظائف يعبر هذا الشكل، وقد التفت النحاة العرب إلى إبراز أغراض المتكلم التي ينوي إبلاغها للسامع بوصفها وسيلة مهمة في التقعيد النحوي، وبوصفها أداة إجرائية تسهم في ضبط الوظائف الإعرابيّة وتحديدها على الوجه الذي ينبغي أن تكون عليه، وقرينة أساسيّة لتخريج التراكيب وتحقيق مبدأي الفائدة وأمن اللبس، على مستوى تفعيل العمليّة التواصليّة المتوخّى منها الفهم والإفهام (قدوم، محمود. (٢٠١٥) نحو النص ذي الجملة الواحدة ١٨٦-١٨٧)؛ ومن هنا كانت أهمية القرائن – ومن بينها الرتبة في فهم المنطوق اللغوي (فتيح، محمد سليمان .(١٩٩٣)من المناهج الحديثة للبحث اللغوي ٧٠ ، ٧١)

ولعل أهمية الرتبة تتأكد إذا نظرنا إلى الأمثلة التالية :

١. إذا طالعنا قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] وقمنا بمقارنته بقولنا: إنما يخشى العلماء الله، فإننا نجد أن العبارة القرآنية تعني أنه لا يخشى الله إلا العلماء من عباده .وعبارتنا تعني أن العلماء لا يخشون إلا الله .ولم يتغير المعنى إلا بسبب التزام الرتبة أو الخروج عليها .

٢. وكذلك قوله تعالى: {قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ } [الأنبياء: ٦٢]، وبالمقارنة بقولنا: أفعلت أنت هذا بآ لهتنا يا إبراهيم فعبارة القرآن تعني أن الشك في الفاعل لا الفعل، وعبارتنا تعني أن الشك في الفعل لا الفاعل، ولا يغير المعنى إلا الرتبة (الجرجاني، عبد القاهر دلائل الإعجاز ١٠٦-١٤٥)

٢. وإذا دققت النظر في الأمثلة التالية إذا قلنا:

١. أنزل الله لنا القرآن دستورا.

٢. الله لنا دستورا القرآن أنزل .

٣. إن المؤمن ليتخد الرسول له قدوة.

٤. إن قدوة المؤمن له ليتخذ الرسول .

فستجد أن المفردات اللغوية في العبارة الأولى هي نفس مفردات العبارة الثانية، وكذلك الحال في العبارة الثالثة والرابعة، ولكنك تجد أن كلا من العبارة الثانية و الرابعة لا تقوم بتوصيل أية رسالة لغوية ؛ و ذلك لأنها افتقدت الترابط بين و حداتها لإهدار الرتبة .

لكل ما سبق- ولغيره مما يطول ذكره –كانت أهمية الرتبة كقرينة من القرائن ؛ ولذلك اهتم اللغويون العرب- من قدامى و محدثين – بالرتبة و أظهروا دورها في الأداء اللغوي، ولا يغيب عنا دورها في تفسير القرآن الكريم، وموقف المفسرين منها، وهو ما سنحاول شرحه في الصفحات التالية.

المبحث الأول: مفهوم الرتبة في الفكر اللغوي القديم والحديث:

سوف نتناول هنا مصطلح الرتبة بالحديث والدرس، ونحدد مفهومه، ونبرز المفهوم الذي نعنيه لأسباب ثلاثة :

أولها : أن أصول البحث العلمي توجب علينا أن نحدد الدالة قبل أن نخوض فيما يدل عليه .

ثانيها: أننا أردنا أن نحدد اختيارنا لمصطلح الرتبة دون غيره من المصطلحات التي ترددت في ثنايا الحديث عن هذا الموضوع ليكون ما نعنيه بمصطلح الرتبة ظاهرا جليا.

ثالثها : أننا أردنا أن نبين الاختلافات الواقعة في تحديد المصطلح بين القدامى والمحدثين، وهذا جزء من موضوع البحث.

تكلم سيبويه في الكتاب عن الرتبة في مواضع متفرقة ولم يستخدم مصطلح الرتبة ولكنه كان يتحدث عنها تحت عنوان التقديم والتأخير فيقول: "وإن شئتَ قلتَ كان أخاك عبدُ الله فقدّمتَ وأخّرتَ كما فعلتَ ذلك في ضَرَبَ لأنه فِعْلٌ مثلُه وحالُ التقديم والتأخير فيه كحالِه في ضرَبَ إلاّ أنّ اسمَ الفاعل والمفعول فيه لشيءٍ واحد..." سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(١٩٨٨) "الكتاب – كتاب سيبويه" (١/ ٤٥)

ويقول: "تقول ما كان فيها أحدٌ خيراً منك وما كان أحدٌ خيراً منك فيها إلاّ أنك إذا أردت الإلغاء فكلّما أَخّرتَ الذي تلغيهِ كان أحسنَ، وإذا أردت أن يكون مستقراً تكتفي به فكلما قدمته كان أحسن لأنه إذا كان عاملاً قي شيء قدمته كما تقدم أظن وأحسب وإذا أَلغيتَ أَخّرتَه كما تؤخَّرهما لأنهما ليسا يَعملانِ شيئاً، والتقديمُ هنا والتأخير فيما يكون ظرفاً أو يكون اسماً في العناية والاهتمامِ مثلُه فيما ذكرتُ لك في باب الفاعل والمفعول، وجميعُ ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار..." (سيبويه، ١: ٥٦).

وقد كان واضحا في ذهن سيبويه أن التزام الرتبة أو مخالفتها قد يكون لسبب بلاغي؛ فيقول: "واعلم أن التقديم والتأخير والعناية والاهتمام هنا مثله في باب كان ومثل ذلك قولك إن أسدا في الطريق رابضا وإن بالطريق أسدا رابضا..." (سيبويه، ٢: ١٤٣).

وقد تكلم الجرجاني في دلائل الإعجاز تحت عنوان التقديم والتأخير أيضا ولم يذكر مصطلح الرتبة (الجرجاني عبد القاهر. (١٩٨٤)دلائل الإعجاز مكتبة الخانجي، مصر: ١٠٦)، وكذلك فعل ابن يعيش ولكنه استخدم مصطلح المرتبة ويقصد به الرتبة (ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي (١٩٥٥).، "الخصائص " الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١: ٣٥)

أما ابن جني فقد أفرد للرتبة أكثر من باب في خصائصه ، وتحدث عنها أيضا في مواضع متفرقة من نفس الكتاب وهو يستخدم مصطلح الرتبة ويعني به ما يعنيه المحدثون مع الاختلاف في أشياء أخرى لا تتعلق بالمصطلح وسيأتي ذكرها في موضعها إن شاء الله (الخصائص ١: ٣٥).

أما في الفكر اللغوي الحديث فقد عرف اللغويون في التركيب اللغوي وأفردوا لها أبوابا وكتبا كاملة ، فقد عرف بلومفيلد الرتبة بأنها الصورة التي تتابع فيها مكونات الشكل المعقد المنطوق (فتيح، محمد سليمان (١٩٩٣)، ، "من المناهج الحديثة للبحث اللغوي"، دار الشباب، مصر، ٧٢)، وعرفها محمد فتيح في إحدى محاضرات الدراسات العليا عام ١٩٩٣ فقال: "هي النسق الذي تتخذه أشكال البنية."

وقد عرفها تمام حسان بأنها قرينة لفظية و علاقة بين جزأين من أجزاء السياق يدل موقع كل منهما من الآخر على معناه (تمام، حسان.(١٩٩٤).، " اللغة العربية معناها و مبناها"، دار اثقافة، مصر، ٢٠٩)

وعلى الرغم مما تقدم نجد بعض الباحثين يستخدم مصطلحات للدلالة على الرتبة لا تتفق مع ما قرره اللغويون السابق ذكرهم، ومن هؤلاء الدكتور أحمد عبد الباقي عباس في رسالته للماجستير، حيث يستخدم مصطلح الترتيب و يقصد به الرتبة، والترتيب هو الشكل الفعلي الذي تتوالى عليه وحدات التركيب وإن كان على خلاف الرتبة، والرتبة قد سبق تعريفها بما يجعلها تخالف الترتيب وأغرب من ذلك أن يستنطق هذا الباحث النصوص القديمة أو التراثية لكي توافق مفهومه عن الرتبة ؛ فقد جعل السكاكي يقول – دون أن يكون هذا قول الرجل – إن النحو هو الترتيب فقد ساق الباحث دليلا من كلام السكاكي (توفي في: ٦٢٦هـ)هو النص التالي : واعلم أن علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض (عباس، أحمد عبد الباقي، (١٩٧٧).، قرينة الرتبة وقيمتها في النحو العربي، كلية دار العلوم، مصر، ٥) ثم يستنتج الباحث أن السكاكي يقول بأن النحو هو الترتيب ويعيب على السكاكي ذلك ويقرر أن النحو كما فهمه الجرجاني يجب أن يحيا .ورغم أن الباحث قد شطر النص – إما عن عمد أو عن غير عمد – فإن النص الذي ذكره لم يتحدث عن الترتيب، وهل يمكن أن نفسر قول السكاكي : (كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى) إلا بمثل ما قاله المحدثون عن الرتبة بأنها : هي النسق الذي تتخذه أشكال البنية ؟ ولم يقتصر السكاكي على الرتبة فقط كما يشير الباحث ولكنه يفهمه على نحو ما فهمه الجرجاني ، يتضح

ذلك إذا أكملنا النص الذي شطره الباحث فالسكاكي يزيد في تعريف النحو على ما أورده الباحث قوله : (...ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك، وبالكلم نوعيها : المفردة، وما هي في حكمها (السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي، (٢٠٠٠).، "مفتاح العلوم"، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٤١)

وقد استخدم كمال بشر مصطلح الموقعية وقصد به الرتبة (بشر، كمال محمد، (١٩٩٨).، "دراسات في علم اللغة"، دار غريب، مصر، ٢: ١٤١-١٤٤)

ويعرف أحمد كشك الموقعية بأنها دراسة سلوك الأصوات في الموقع (القيمة النحوية للموقع، ٤١)

ويرى الدكتور أيوب أن الموقع جزء من التركيب اللغوي يرتبط بجزء آخر ارتباطا تدل عليه بعض الصفات المادية

(أيوب، عبدالرحمن، (١٩٦٦)محاضرات في اللغة ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٧ - وانظر القيمة النحوية للموقع، ٤١) والحق – فيما نرى- أن الرتبة تختلف عن الموقع أو الموقعية وفقا للتعريفات السابقة .

وفي حديثنا على صفحات هذا البحث سوف نستخدم مصطلح الرتبة ونقصد به ما تكلم عنه النحاة العرب ضمنا، وما قصده ابن جني واللغويون المحدثون من هذا المصطلح ؛ ذلك أنه أفضل المصطلحات السابق ذكرها تعبيرا عما نقصده، وأكثرها شيوعا واستخداما بين الدارسين .

المبحث الثاني: الرتبة عند القدامى:

إن الناظر إلى ما كتبه قدامى لغوي العرب ليدرك أمورا أربعة :

أولها : أن اللغويين العرب قد تكلموا عن الرتبة موضحين أن الأصل في الكلام هو الرتبة سواء أكانت محفوظة أم غير محفوظة، وأن عدم التزام الرتبة هو خروج عن الأصل .

ثانيها : أنهم تكلموا عن الرتبة كقرينة من القرائن التي تعين السامع أو الناظر إلى الرموز المكتوبة للغة على فهم المعنى .

ثالثها : أن القدماء قد تكلموا – معظمهم – عن الرتبة في أبواب متفرقة تحت عنوان التقديم والتأخير في باب كذا ...

رابعها : أن القدامى لم يشيروا إلى أن الرتبة تتضافر مع غيرها من القرائن لتوضيح المعنى ولكنهم ركزوا على أن القرائن قد يغني بعضها عن بعض .

فقد أدرك سيبويه حين حديثه عن الرتبة أن الأصل في الكلام الرتبة فهو يشير إلى ذلك في غير موضع من الكتاب منها على سبيل المثال قوله عن الرتبة بين المفاعيل: "وإن شئت قدمت وأخرت فقلت :كسا الثوب عبد الله وأعطى المال عبد الله" (الكتاب ١: ٢٦، ٤٢) فسيبويه يدرك الأصل في التركيبين السابقين وهو على الترتيب كسا عبد الله الثوب وأعطى عبد الله المال . وقد قسم سيبويه الخروج على أصل الرتبة إلى : مستقيم حسن، ومستقيم قبيح وسيأتي تفصيل ذلك في موضع لاحق . وهو يقرر أن الفعل لابد أن يليه الفاعل والمبتدأ قبل الخبر والنكرة قبل المعرفة (الكتاب ١: ٢٣، ٢٤)

ولعل أوضح من تكلم عن الرتبة عموما وعن الأصل في الرتبة خصوصا من القدماء هو ابن جني، فقد عقد في خصائصه بابا تحت عنوان : نقض المراتب إذا عرض هناك عارض . عرض تحته لما تصنعه العرب إذا شاع الخروج عن الأصل، إذ تجعله قسما قائما بذاته ومن ذلك تقديم المفعول على الفاعل، فالمفعول لم يتقدم لأن رتبته التقدم ولكن ذلك من النقض العارض أي الخروج عن الأصل (الخصائص ١: ٢٩٣ – ٢٩٩، ٣٠٣ – ٣٠٩).

وابن جني يقرر في موضع آخر أنه إذا ظهرت قرينة العلامة الإعرابية بحيث تمنع اللبس جاز الخروج على الأصل في الرتبة ؛ فلذلك يجوز نحو : أكرم سعيدا أبوه، أما إذا لم تقم قرينة الإعراب ولم تقم قرينة أخرى بذلك فيلزم أصل الرتبة . (الخصائص ١: ٣٥)

ومجمل القول أن ابن جني أدرك وشرح بوضوح أن الأصل في الكلام الرتبة وأن الخروج عليها خروج على الأصل تسوغه مسوغات محددة .(الخصائص ١: ٢٩٣، ٢/ ٢٨٢، ٣٩٠)

أما ابن يعيش فهو يتفق مع ابن جني فيما قرره وبصورة واضحة أيضا .(ابن يعيش، يعيش بن علي ابن أبي السرايا محمد بن علي (٢٠٠١ م).، " شرح المفصل" دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ١: ٧٢)

أما ابن مالك فقد عبر بصريح العبارة عن المعنى الذي نقصده ؛ فهو يقول :

والأصل في الفاعل أن يتصلا	والأصل في المفعول أن ينفصلا
وقد يجاء بخلاف الأصـــــل	وقد يجي الفاعل قبل الفـــعل

أي أن الأصل أن يتقدم الفاعل ويتأخر المفعول ؛ فيتصل الفاعل بفعله وينفصل المفعول بتأخره .وقد يخرج على هذا الأصل وفقا لشروط معينة .(ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله العقيلي المصري الهمذاني.(١٩٨٥) .، "شرح ابن عقيل" دار الفكر، دمشق، سوريا، ٢: ٩٦)

وقد أدرك الجرجاني ذلك ففهم أن التقديم و التأخير لا يجري مجرى الأصل فلا يقول على ما كانت رتبته التأخير أنه تأخر، ولا ما كانت رتبته التقديم أنه تقدم . (دلائل الإعجاز، ١٠٧)

وقد دفع ظهور فكرة الأصل لدى اللغويين القدماء أحد الباحثين المحدثين أن يقول بأنه من المحتمل أن يكون " تشومسكي " قد أخذ أصول نظريته عن العرب ؛ لأن النحاة العرب أدركوا فكرة البنية السطحية والبنية العميقة (deep structure, surface structure)، ولكن عباراتهم كانت تختلف في الدال لا في المدلول ؛ لذا شاعت في مؤلفاتهم تراكيب مثل " تقديره كذا " و " الأصل كذا " و " المعنى كذا " (عبد اللطيف، محمد حماسة.(١٩٩٠)، . "من الأنماط التحويلية في النحو العربي " مكتبة الخانجي، مصر، ٢١-٣٨)

وقد استقصى تمام حسان أصول النحاة وجمعها في كتابه " الأصول " وسوف نأخذ عنه الأصول التي جمعها من أقوال النحاة فيما يتعلق بالرتبة .

ولعله من الجيد أن نوضح أن النحاة واللغويين القدماء كانوا يقصدون بالأصل معيارية القاعدة، ومن أصول النحاة التي تحدثوا عنها ما يلي :(يمكن مراجعة ذلك في كتب الأقدمين مثل : " الأصول " لابن السراج و " الإنصاف في مسائل الخلاف " لابن الأنباري)

١. الأصل في الكلام الرتبة محفوظة كانت أم غير محفوظة .
٢. الأصل في المسند إليه أن يتقدم وفي المسند أن يتأخر .
٣. الأصل في العامل أن يتقدم على المعمول .
٤. الأصل في الفاعل أن يتقدم على المفعول .
٥. الأصل في المفعول الأول أن يتقدم على المفعول الثاني .(الأصول، تمام، ٣٥)

ولعلنا نستطيع الآن القول بأن النحاة و اللغويين القدماء أدركوا جيدا فكرة الأصل في التراكيب اللغوية، وأن فكرة الأصل عند النحاة أو التقدير يمكن أن تقابل ما يقصده التركيبيون بالبنية العميقة، وأن التركيب الفعلي أو الحاصل يقابل ما يقصده التركيبيون بالبنية السطحية. لم يذكر سيبويه بعبارة صريحة أن الرتبة قرينة للوصول إلى المعنى، وليس معنى ذلك أنه لم يدرك أن الرتبة قرينة لفظية وإلا فما الذي جعله يحكم على تقديم بعض الكلم على بعض بأنه مستقيم قبيح؟ أما ابن جني فقد كان أوضح قليلا من سيبويه – في هذه النقطة – حيث علل ظهور المعنى مع غياب العلامة الإعرابية: ضرب يحيى بشرى بأنه في مثل هذه الحالة يجب التزام الأصل في الرتبة (الخصائص، ١: ٥)، وهذا يعني أنه يفهم أن الرتبة قرينة لفظية تساعد في الوصول إلى المعنى . أما ابن خلدون فقد صرح بأن معاني الأبواب النحوية إنما تظهر بما سماه " قرائن الكلام " والرتبة قرينة من هذه القرائن (ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. (٢٠١٤) ، تحقيق على عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، ١ :٣٧٨)

وقد أدرك ابن مالك هذه الفكرة وعبر عنها بعبارة صريحة فهو يقول : " وأخر المفعول إن لبس حذر " (شرح ابن عقيل، ٢: ٩٨) فابن مالك يدرك أن التزام الرتبة أو الخروج عنها قد يؤدي إلى التباس باب بآخر .

وقد تحدث سيبويه عن الرتبة في مواضع متفرقة من الكتاب، فلم يفرد لها بابا، والتزم اللغويون من بعده بما خطه سيبويه فلم نجد منهم من أفرد للرتبة بابا غير ابن جني في خصائصه حيث أفرد لها بابا بعنوان " باب في نقض المراتب إذا عرض هناك عارض" و كذلك تكلم عنها في بداية الجزء الأول حين حديثه عن الإعراب ، و كذلك خصها بفضل في الجزء الثاني في باب شجاعة العربية "تحت عنوان" "فصل في التقديم و التأخير ".

أما الجرجاني فخص الرتبة بباب تحت عنوان " التقديم و التأخير "(الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١٠٦-١٤٥) ثم تحدث عنها في مواقع متفرقة من الكتاب، ونلاحظ أن الجرجاني قد اهتم بالجانب الدلالي ولم يشر إلى الجانب البنيوي.

ولم يشر القدماء – فيما نعلم – إلى أن القرآئن تتعاون أو تتضافر لتوضيح المعنى، ولكنهم اكتفوا بالإشارة إلى أن بعض القرآئن قد يحل محل البعض الآخر، وأنه يمكن إهدار قرينة إذا قامت قرينة أخرى دليلا على المعنى، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ابن جني إذ لا نحتاج إلى كبير عناء لفهم ذلك من حديثه (ابن جني الخصائص ١: ٣٥، ٢٣٩- ٢١٤).

المبحث الثالث: الرتبة عند المحدثين :

كتب كثير من المحدثين عن الرتبة (قرينة الرتبة و قيمتها في النحو العربي ، القيمة النحوية في الموقع ، التضام في النحو العربي ، أصول تراثية في علم اللغة ، دراسات في علم اللغة ، القسم الثاني ، محاضرات في علم اللغة) و لكننا سنعتمد هنا على ما كتبه تمام حسان في اللغة العربية معناها و مبناها ، و الأصول، وذلك لأن تمام يعد أفضل من كتب عن الرتبة من المحدثين.

وقد تناول تمام حسان الرتبة في إطار نظريته العامة في المبنى و المعنى ، فهو يقرر أن النظام النحوي للغة العربية مبني على أسس خمسة هي :

١_طائفة من المعاني النحوية العامة.

٢_مجموعة من المعاني النحوية الخاصة ، أو معاني الأبواب المفردة كالفاعلية و المفعولية ...إلخ

٣_مجموعة من العلاقات التي تربط المعاني النحوية الخاصة.

٤_ما يقدمه علم الأصوات و الصرف للنحو من قرائن صوتية أو نحوية كالحركات.

٥_ القيم الخلافية (اللغة العربية معناها و مبناها، ١٧٨)

ولما كان إدراك المبنى بواسطة النظر إلى العلامة ليس من العمليات العقلية الكبرى و كانت الصعوبة هي إدراك المعنى بواسطة المبنى

؛ ذلك أن المعنى الوظيفي للمبنى يتسم بالتعدد و الإحتمال _كانت أهمية القرائن _ومنها الرتبة _ في تعيين أي المعاني المقصودة من هذا المبنى (السابق ١٨٠_١٩٠)

و الشكل التوضيحي التالي يوضح تصور الدكتور تمام للقرائن بصفة عامة و مكان قرائن التعليق منها ، وعلاقة كل منها بالأخريات

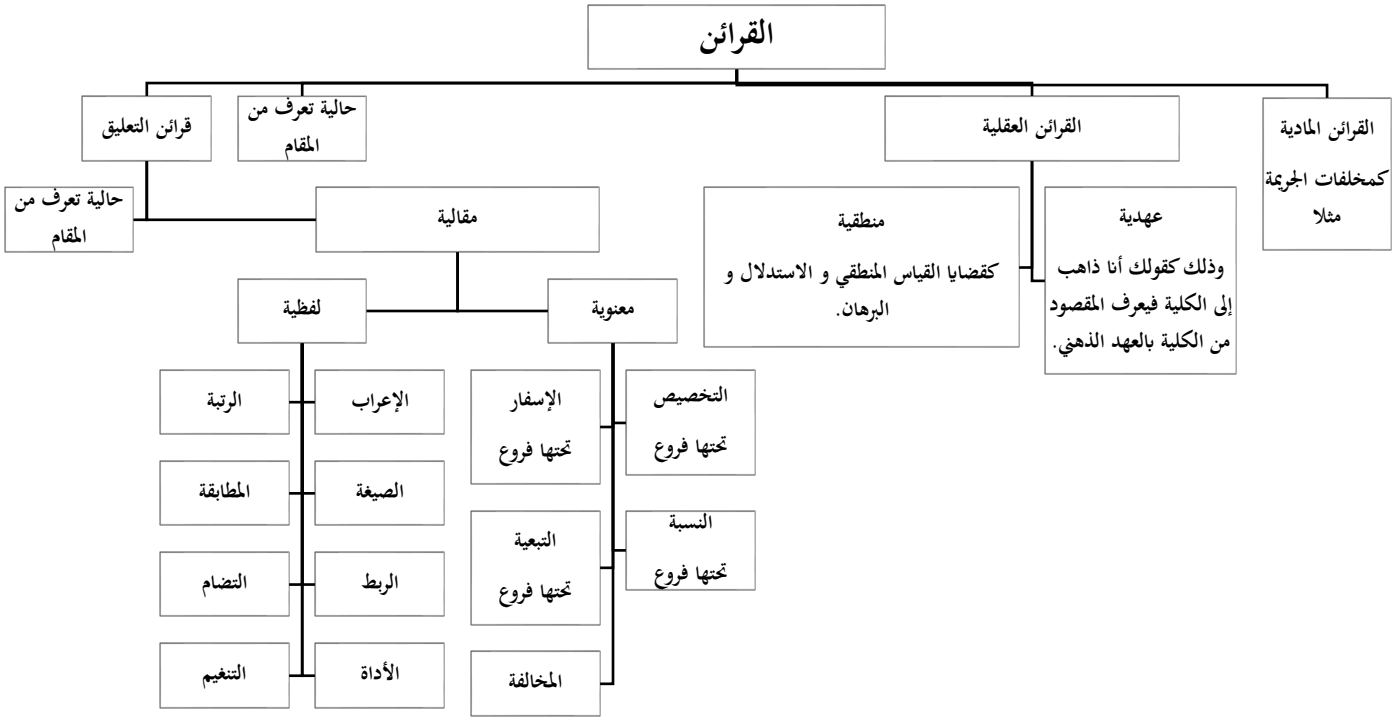

1رسم توضيحي

(نقلا عن تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، ١٩٠)

و قد سبق أن أوردنا تعريف الدكتور تمام حسان للرتبة بما يغني عن إعادته هنا.

و الشكل التوضيحي التالي يوضح تصور تمام للرتبة.

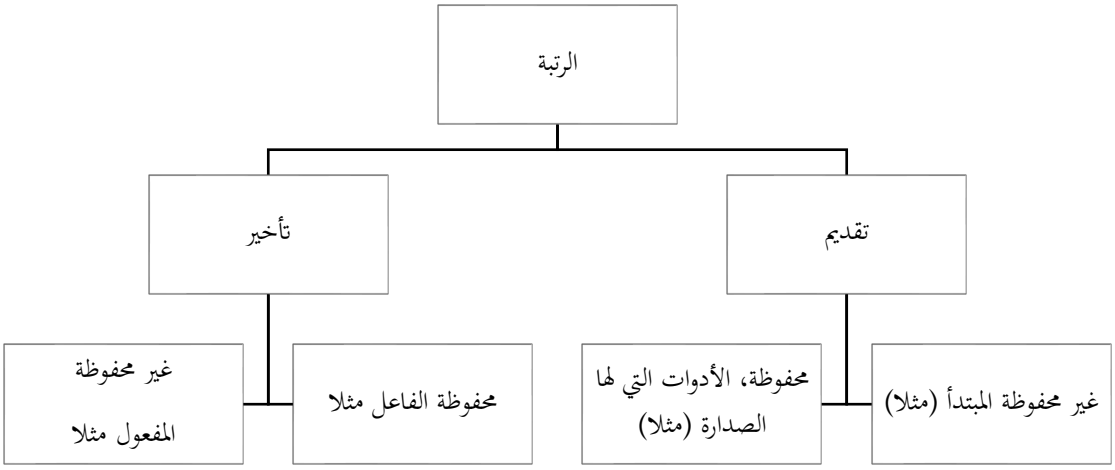

رسم توضيحي ٢

(تمام حسان اللغة العربية معناها و مبناها، ٢٠٨)

و قد لاحظ تمام أمورا ستة هي :

١. الأصل في الكلام الرتبة سواء كانت محفوظة أو غير محفوظة (السابق ١٩١_٢١٠).

٢. أن البلاغيين في دراستهم للرتبة قد درسوا حرية الرتبة و الرتبة غير المحفوظة و لم يتعرضوا للرتبة المحفوظة لأن باختلالها يختل التركيب (حسان، تمام، (٢٠٠٠).، "الأصول"، عالم الكتب مصر، ٣٨)

٣. أن بين الرتبة النحوية و الظواهر الموقعية قرابة؛ لأن الرتبة :حفظ الموقع ، و الظاهرة الموقعية هي : تحقيق مطالب الموقع .

٤. أن الرتبة أكثر ورودا مع المبنيات منها مع المعربات؛ و ذلك أن عدم و جود قرينة العلامة الإعرابية في المبنيات قد جنح بها إلى قرينة الرتبة، و جعل الرتبة عوضا لها من العلامة الإعرابية .

٥. أن الرتبة كقرينة من القرائن تخضع لمطالب أمن اللبس وقد يؤدي ذلك إلى أن تنعكس الرتبة بين الجزأين المرتبين بها .

٦. أن الرتبة كقرينة من القرائن لا قيمة لها بدون تضافر القرائن .

مما سبق يتبين لنا أن الدكتور تمام يتفق مع القدماء فيما يلي :

١. مصطلح الرتبة عند إبن جني، و قرائن التعليق التي هي قرائن الكلام عند إبن خلدون .

٢. أنه راعى فكرة الأصل كما راعاها القدماء .

٣. أنه اتفق معهم في أن الرتبة قرينة تساعد على فهم المعنى .

وأنه يختلف معهم فيما يلي :

١. أنه أكد على ضرورة تضافر القرائن و لم يشيروا هم إلى ذلك .

٢. أنه درس الرتبة دراسة مستقلة و لم يفعلوا ذلك عدا ابن جني و الجرجاني .

٣. أنهم اهتموا بالعامل النحوي فكان سببا لإهمالهم الرتبة، و اهتم هو بالرتبة و أهدر فكرة العامل .

المبحث الرابع: الجانب التطبيقي

لم نر في الدراسات السابقة سواء عند القدماء او المحدثين من أشار إلى أسباب حفظ الرتبة المحفوظة، أو أسباب الخروج عن الأصل، كما لم يرجعوا ذلك إلى أسباب دلالية أو بنيوية أو أسلوبية، لذلك سوف نحاول أن نخوض هذه التجربة مطبقين أفكارنا على باب المفعول به، مع الإشارة إلى أننا لم ندرس الرتبة بين مفاعيل الأفعال المتعدية لمفعولية أو ثلاثة مفاعيل، كذلك لم ندرس الرتبة بين المفعولين مع الأفعال المتعدية لمفعولين في غير هذه الأفعال و قد فعلنا ذلك ميلا للإيجاز و بعدا عن الإسهاب الممل.

و قد وجدنا أن الأسباب التي أرجع إليها النحاة تقدم المفعول على الفاعل يمكن أن تصنف إلى الأسباب التالية :

١. أسباب بنيوية.

٢. أسباب أسلوبية.

٣. أسباب دلالية.

أولا الأسباب البنيوية، و ذلك في الحالات التالية :

أ .أن يكون المفعول ضميرا متصلا و الفاعل اسما ظاهرا. و أمثلة ذلك في القران كثيرة منها قوله تعالى: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [فصلت: ٢١]

ب .أن يكون الفاعل مشتملا على ضمير يعود على المفعول به و أمثلة ذلك في القران كثيرة منها قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة: ١٢٤]

ج .أن يكون المفعول به ضميرا منفصلا لو تأخر لوجب اتصاله و أمثلة ذلك في القران كثيرة منها قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] البقرة {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [البقرة: ٤٠] ٤٠ {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ} [سبأ: ٤٠]. ويلاحظ على أمثلة هذا النوع أن التقديم يمكن أن يرد إلى غرض بلاغي و هو الحصر و لذلك يمكن أن تعتبر هذه الحالة سببا دلاليا بمنظور البلاغيين .

ثانيا أسباب أسلوبية و ذلك في الحالات التالية :

أ .أن يكون الفاعل قد وقع عليه الحصر و أمثلة ذلك في القران كثيرة منها قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص: ٨٠] القصص ٨٠ {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ} [البقرة: ٩٩] البقرة ٩٩ وهذا السبب يمكن إدراجه ضمن الأسباب الدلالية .

ب .إذا كان المفعول اسما له الصدارة في الكلام .و أمثلة ذلك في القران كثيرة منها قوله تعالى: {قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} [القصص: ٢٨]، وقوله تعالى: { يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [غافر: ٣٣]، وقوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ١٣]

ج . إذا كان عامله مقرونا بفاء الجزاء في جواب أما الشرطية الظاهرة أو المقدرة و أمثلة ذلك في القران كثيرة منها قوله تعالى: {نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا} [المزمل: ٣]، وقوله تعالى: { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: ٩ – ١١] .

ثالثا أسباب دلالية مثل :

أ- أن يقدم المفعول للاهتمام به كما عبر النحاة كقولنا قتل الخارجي فلان . فالمهم أنه قتل و استراح الناس من شره، وليس مهما بعد ذلك من قتله. و أمثلة ذلك في القرآن كثيرة منها قوله تعالى: { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الأنفال: ٥٠]، وقوله تعالى: { سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} [إبراهيم: ٥٠].

ب- أن يقدم المفعول مع أداة الاستفهام لغرض الإنكار. وأمثلته في القرآن الكريم كثيرة، منها قوله تعالى: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا...} [الأنعام: ١١٤]، وقوله تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ...} [الأنعام: ١٦٤]، وقوله تعالى: {قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ١٤٠]

ت- أن يقدم المفعول على الفاعل لغرض القصر، وأمثلته في القرآن الكريم كثيرة، منها قوله تعالى: {...وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [البقرة: ٥٧]، وقوله تعالى: {سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٧٧]، وقوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: ٨٤]

أما في حالة التزام الأصل في الرتبة في هذا الباب، فقد وجدنا أمثلته كسابقتها موزعة على نفس الأسباب التي ذكرناها، لذلك فضلنا عدم التكرار، والاكتفاء بالإشارة إلى ذلك ميلا للإيجاز.

وجدير بالذكر هنا أن نقرر أننا لا نوافق النحاة فيما ذكروه من أسباب الخروج على الرتبة فيما سموه بالتقديم والتأخير ليوافق رؤوس الآي، فيما يتعلق بالقرآن الكريم، وكذلك قولهم بالتقديم والتأخير ليستقيم للشاعر قوافيه، أو للكاتب فواصله، ونرى أن كل ذلك يمكن رده إلى الأسباب السابقة، ومن العجيب أن يستمر محدثو النحاة العرب في ترديد نفس المقولة رغم اطلاعهم على كتاب عظيم مثل كتاب الجرجاني.

كما وجدنا أن أسباب التقديم قد تخرج عن الأسباب التي ذكرناها، وذلك في الحالتين التاليتين:

١. عند ظهور العلامة الإعرابية حيث تكون الرتبة حرة.

٢. في مثل قولنا : ولدت هذه هذه، مع الإشارة إلى أم وابنتها، وتكون القرينة هنا قرينة المقام أو الحال، وهي قرينة غير لغوية.

الخاتمة

تتبعت الدراسة مفهوم الرتبة في الفكري اللغوي العربي قديما وحديثا، فحددت الألفاظ التي استخدمها القدماء للدلالة على الرتبة، كما وقفت على الأهمية التي تحظى بها الرتبة في التركيب اللغوي في الجملة العربية، وناقشت أفكار المحدثين حول الرتبة، وبينت ما وهم فيه بعض الباحثين بنسبة آراء للقدامى لم يقولوا بها، ووقفت الدراسة على أن جهود تمام حسان هي أفضل ما قدم حتى الآن من الجهود الحديثة؛ فقارنت بين مفهوم الرتبة لديه ومفهومها لدى القدماء، ثم قامت الدراسة بتحديد أسباب الخروج عن الرتبة والالتزام بها عند النحويين العرب، وناقشت هذه الأسباب مناقشة علمية.وقد تفردت الدراسة عن سابقيها بتصنيف أسباب الخروج عن الرتبة لدى النحاة، وإعادة الكشف عن أسبابها، وناقشت أفكار النحاة في هذا الإطار، وخلصت إلى أن هذه الأسباب يمكن أن تقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسة: أسباب بنيوية، وأسباب أسلوبية، وأسباب دلالية، ثم قامت بتطبيق هذه الأسباب على باب المفعول به للفعل المتعدي لمفعول واحد، وحرصت أن تكون الأمثلة التي تطبق عليها من نصوص القرآن الكريم لعلو منزلته بين نصوص العربية. وبهذا فقد فتحت الدراسة بابا جديدا للباحثين يجب طرقه، وهو تحليل أسباب النحاة العرب للحفاظ على الرتبة أو الخروج عنها، والكشف عنها في أبواب النحو العربي، مستفيدة من النموذج التطبيقي لهذه الدراسة.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي (١٩٥٥).، "الخصائص " الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

٢. ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله العقيلي المصري الهمذاني.(١٩٨٥) .، "شرح ابن عقيل" دار الفكر، دمشق، سوريا.

٣. ابن يعيش، يعيش بن علي ابن أبي السرايا محمد بن علي (٢٠٠١ م).، " شرح المفصل" دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان.

٤. الجرجاني عبدالقاهر. (١٩٨٤).، "دلائل الإعجاز" مكتبة الخانجي، مصر.

٥. السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي، (٢٠٠٠).، "مفتاح العلوم"، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٦. بشر، كمال محمد، (١٩٩٨).، "دراسات في علم اللغة"، دار غريب، مصر.

٧. تمام، حسان.(١٩٩٤).، " اللغة العربية معناها و مبناها"، دار اثقافة، مصر.

٨. تمام، حسان ، (٢٠٠٠).، "الأصول"، عالم الكتب مصر.

٩. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(١٩٨٨) "الكتاب – كتاب سيبويه" مكتبة الخانجي، مصر.

١٠. عباس، أحمد عبد الباقي، (١٩٧٧).، قرينة الرتبة وقيمتها في النحو العربي، كلية دار العلوم، مصر.

١١. عبداللطيف، محمد حماسة.(١٩٩٠)، . "من الأنماط التحويلية في النحو العربي " مكتبة الخانجي، مصر.

١٢. فتيح، محمد سليمان (١٩٩٣)، ، "من المناهج الحديثة للبحث اللغوي"، دار الشباب، مصر.

١٣. قدوم، محمود (٢٠١٥)، "نحو النص ذي الجملة الواحدة: دراسة تطبيقية في مجمع الأمثال للميداني"، مركز الملك عبدالله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية، الرياض، السعوديّة.